الأطلسي وأعداؤه

عرض: ستيفن هايوورد

مركز اميريكان انتربرايز

22 يوليو 2010

The Atlantic and Its Enemies

Reviewed By **Steven F. Hayward**

American Enterprise Institute (AEI)

ستيفن هايوورد

- كبير باحثين في مركز اميريكان انتربرايز (AEI).
- باحث في مركز الدراسات الباسيفيكية (Pacific Research Institute).
- دكتوراه في الدراسات الأمريكية.

ترجمة: علي الحارس (alharis.a@gmail.com)

الكتاب: الأطلسي وأعداؤه.. من تاريخ الحرب الباردة.

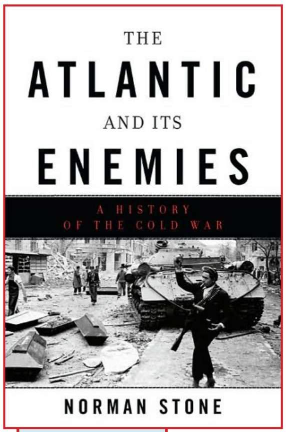

غلاف الكتاب

الكاتب: نورمان ستون.

عدد الصفحات: 712.

الناشر: (Basic Books).

تاريخ النشر: مايو 2010.

نبذة عن الكاتب:

- أستاذ العلاقات الدولية، جامعة بيلكينت، أنقرة.
- أستاذ في جامعة أكسفورد (سابقا).
- محاضر في جامعة كامبريج (سابقا).
- مستشار في الشؤون الخارجية وكاتب خطابات في حكومة رئيسة الوزراء البريطانية السابقة مارغريت ثاتشر.

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الأطلسي وأعداؤه

يتعرض تاريخ الحرب الباردة حاليا إلى هجمة من ظلال النسيان، وذلك بسبب انشغال قادة السياسة والفكر عنه بالحرب الحالية (كما يدعوها المحافظيون) أو «صراع الغروب الطويل» (كما يدعوه الليبراليون) ضد التطرف الإسلاموي؛ ولم يعد اليسار مهتما كما كان سابقا بالتخاصم حول مفهوم الحرب الباردة أو مراجعته، فكل العناصر الرئيسية في قصة الحرب الباردة أصبحت معروفة للجميع، وفي ما عدا الأنباء التي تتحدث عن معلومات جديدة منقولة عن مصدر لا يزال سريا من الأمريكيين أو الروس، فلا يبدو أن هنالك أي جديد يذكر حول هذه المسألة.

وبالنظر إلى هذه الحال يبرز السؤال: هل هنالك من مجال أو حاجة للكتاب الجديد الذي نستعرضه في هذه المقالة؟ والمدهش أن الجواب: نعم ولا ريب. فمؤلف الكتاب، وهو مؤرخ عمل في الإعلام العسكري البريطاني سابقا، قدم لنا نصا تفسيريا يبدو في بعض مفاصله غريبا وصريحا جدا (حملت النسخة البريطانية من الكتاب عنوانا ثانويا مختلفا يوحي بمحتوى الكتاب: رواية شخصية لتاريخ الحرب الباردة). وفي هذا التفصيل الزمني تجد المؤلف يقفز بين الأحداث مما يتطلب انتباه القارئ؛ فتجده يغض النظر عن الكثير من الأحداث العظمى: كخطاب «الستارة الحديدة» لتشرتشل، و«البرقية الطويلة» وسياسة الاحتواء لكينان، وخطاب «امبراطورية الشر» لريغان، والتحدي المدوي لغورباتشيف في ريكيافيك. حيث يقلل ستون من شأن البعد الايديولوجي في صراع الشرق والغرب، ولا يهتم كثيرا بذكر تعاطف اليسار مع الشيوعية. ومن أشير إليهم في العنوان باعتبارهم «أعداء الأطلسي» لم يبرزوا كشياطين أكثر من ظهورهم كحمقى، ومع ذلك فإن عزوف المؤلف عن الموضوعات السياسية الدبلوماسية المعهودة هو الذي مكنه من تقديم منظور جديد مثير عن أحداث نظن بأننا نألف تفاصيلها.

إذا أردنا تقديم أفضل وصف لهذا الكتاب فيمكننا أن نقول بأنه تأريخ اقتصادي وثقافي للحرب الباردة من منظور أوروبي مركز؛ وبالرغم من أن المؤلف يقيم كتابه على أساس أن الحرب الباردة ينبغي فهمها «كحرب خلافة بريطانيا» (من هي القوة العظمى التي يمكن

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

لها أن ترث الامبراطورية البريطانية المترامية الأطراف؟ ثم يعطي الاستحقاق للولايات المتحدة الأمريكية «التي كانت القوة العظمى الخلاقة في جميع الأحوال». ثم يركز جل اهتمامه على أوروبا وبعض الدول الهامشية من العالم النامي كمصر وتركيا وتشيلي. وبالرغم من أن المؤلف يولي احتراما لائقا لرونالد ريغان، فإنه يولي مرتبة البطولة لثلاثة قادة آخرين، هم: مارغريت ثاتشر، وشارل ديغول، وهيلموت شميت.

إن التركيز على الدور الأوروبي في الحرب الباردة يعتبر إضافة مفيدة للأسلوب الذي اعتاده القارئ الأمريكي في تناول هذه الحرب، أي: بالتركيز على القطبين الرئيسيين فيها (الولايات المتحدة وروسيا). حيث يأخذنا ستون في رحلة إلى ذلك الشتاء القاسي بين العامين (1946-1947)، وحينها كان الاقتصاد الأوروبي لا يزال ضعيفا ومتذبذبا، حتى أن ألمانيا كانت على شفير المجاعة في ذلك الوقت؛ فتقدمت أمريكا لتحمل تحدي الحفاظ على الثبات الأوروبي، وذلك من خلال خطة مارشال التي يقيّمها ستون بأنها كانت «ناجحة إلى حد هائل». وبينما تميل معظم الكتابات التي تتناول خطة مارشال إلى اعتبارها برنامجا تحفيزيا ضخما للرعاية الاجتماعية يستند إلى مبادئ المدرسة الكينزية، يورد الكاتب تفاصيل تشرح أن خطة مارشال كانت جزءا من مشروع أكبر يهدف إلى استعادة الأسس الاقتصادية الأوروبية، مما أدى في ما بعد إلى نهوض «الفينيق الأوروبي» من بين الرماد.

واليوم نلاحظ أن «المشروع الأوروبي» للاندماج الاقتصادي والسياسي أمر محسوم، حتى وإن كان اليورو، والذي ظهرت أولى ملامحه في حقبة خطة مارشال، يعاني شيئا من الاهتزاز حاليا. فبالإضافة إلى ما يقدمه الكاتب من تفاصيل وافية عن إعادة إعمار المصانع الرئيسية واستقرار العملات وإعادة التبادل التجاري ما بين الأمم الأوروبية؛ يذكرنا الكاتب بأن إعادة المنزلة المحترمة لألمانيا كان أساس المشروع الأوروبي وإنشاء تحالف الناتو. ومن عاش في نهاية أربعينيات القرن العشرين لا يمكنه افتراض حتمية نجاح ألمانيا الحديثة، لكن المؤلف يستثني عملية تحرير السوق التي قام بها لودفيغ ايرهارد، وكذلك البنية السياسية لمزارعي ألمانيا الغربية والتي يقيّمها ستون بقوله «حكماء من المرتبة

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الفيلادلفية». وعلى العكس كان الحال في ألمانيا الشرقية، والذي بلغ ذروته في جدار برلين، حيث شكل وصمة عار أبدية في جبين الشيوعية، ويصف الكاتب ذلك بقوله «جلطة بطيئة في كافة شرايين الشيوعية الأوروبية، وبهذا حقق الغرب الانتصار»، حتى وإن استلزم الأمر أكثر من جيل لإكمال هذا الانتصار.

وبالرغم من إنشاء أوروبا مستقرة مستندة إلى تحالف متين ضد السوفييت خلال فترة قصيرة تلت نهاية الحرب، كان للسوفييت أسباب تشعرهم بالثقة العالية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين بعد خلافة خروتشيف لستالين، حيث يرى الكاتب أن خروتشيف «كان ينتمي إلى جيل يعتقد أن الشيوعية سوف تنتصر في كل أنحاء العالم» حتى وإن كانت مكروهة في معظم الدول التي حكمتها واحتاجت فيها إلى أنظمة استبدادية لاستمرار حكمها. وكانت الثقافة السوفييتية الرفيعة تبدو أغنى من الثقافة الغربية، وكان السوفييت يسرعون في ملء الفراغ في العالم الثالث الذي كان يشهد تفتت سيطرة الامبراطورية الغربية عليه، ولبعض الوقت بدا أن الروس أكثر نشاطا في المجال التكنولوجي، «فكان القمر الصناعي (سبوتنيك) بطاقة هوية لتقديم الشيوعية».

ومع أن الولايات المتحدة قبلت تحدي (سبوتنيك)، فإن سباق الفضاء كان حلبة الصراع الوحيدة التي تقدمت فيها على الاتحاد السوفييتي في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين. ويقدم المؤلف مسحا تهكميا يتناول التآكل الذي عانى منه الغرب في تلك الفترة، وبالأخص: الفشل الأمريكي في فيتنام، ولكنه لا يبتعد عن عادته التي دأب عليها في الفصول الأولى، فيبدع في وصف التآكل الاقتصادي الذي لحق بأمريكا عندما تركت التضخم يرتفع والدولار يفقد استقراره فأدى ذلك إلى عواقب مدمرة على الصعيد العالمي. وهنا يوجه المؤلف أصابع الاتهام إلى غرور الاقتصاديين الليبراليين، فيقول: «كان الاقتصاديون من الجيل الشاب مقتنعين بأنهم مكلفون بتشريع القوانين للإنسانية جمعاء، حتى أنهم اعتقدوا بأنهم قضوا على كل المشكلات... فروحية الستينيات كانت تؤمن بوجود أجوبة سهلة دائما ما دام العجائز المتذمرون بعيدون عن التدخل بعملهم».

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

الأطلسي وأعداؤه

تتمثل إحدى السمات الفاتنة لهذا الكتاب بطريقة العرض البسيطة الجميلة التي تبرز من الصفحات في مواقع الذروة، وبالأخص في وصف عيوب القادة السياسيين في ستينيات وسبعينيات القرن العشرين؛ فيشجب سياسة الرئيس جون كينيدي واصفا إياه بأنه «خريج هارفارد ذو الشعر الممشط»، ونادرا ما يبدي انبهاره بالرئيسين ليندون جونسون أو ريتشارد نيكسون. واتضاح ما دعاه بول جونسون «بمحاولة أمريكا للانتحار» التي بدأت في عهدي جونسون ونيكسون وتركت أمريكا تحت رحمة «أغرب محاكم التفتيش». ولم يولِ الكاتب اهتماما كبيرا بسياسة رئيس الوزراء البريطاني ادوارد هيث، وهو محق في ذلك؛ لكنه يورد عبارات ازدراء كبيرة بحق الرئيس جيمي كارتر فيقول:

> كان نظام كارتر رمزا لتلك المرحلة المفعمة بالآمال الواهية؛ فكنت تجده يمارس الرياضة في الهواء الطلق ويصافح الناس أينما حل مع زوجته النحيلة، ويتلو الصلوات على الطريقة المعمدانية، ويمنع التدخين حيثما يستطيع، ويرسل النساء المتسلطات لإلقاء المواعظ حول حقوق الإنسان في أماكن تعتبر تسلط المرأة ذنبا من الذنوب.

وينتهي المؤلف إلى القول بأن إدارة الرئيس كارتر تسببت لنفسها بالحنق أكثر من الرضى لأن كارتر «كان شديد الغباء»، وبهذا الحكم يثبت المؤلف أنه ليس عضوا في لجنة منح جائزة نوبل!

وحتى عندما استمرت الأوضاع بالتدهور في الولايات المتحدة، كان كل من أمريكا وبريطانيا يمران بعملية «تجدد للأنسجة تحت السطح»، ووصلت العملية إلى ذروتها بانتخاب ثاتشر، والذي كان «يعني انتخاب (قطاع الأعمال) أخيرا»، وانتخاب ريغان في العام التالي؛ ولا شك في أن المؤلف يمنح تقديرا أكبر لثاتشر من بين الاثنين. فيقول بأنها رئيس الوزراء الأكثر اقتدارا منذ أيام ديفيد لويد جورج، ذلك أنها كانت تتمتع بالقدرة على معرفة «متى تلعب دور الساحرة، ومتى تلعب دور المربية القاسية». لكن قراءة المؤلف لسياسة ريغان ليست

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

بالوضوح ذاته. وهو يعزو إليه امتلاك الفهم الصائب للأزمة السياسية والاقتصادية في تلك الحقبة. والحكمة والتصميم في تحدي الاتحاد السوفييتي بشكل مباشر. ولكن المؤلف لا يوفق في الزعم بأنه يفهم ريغان على أساس أنه «نسخة فاتنة من نيكسون». وتتسم القراءة المجملة لحقبة ثمانينيات القرن العشرين في هذا الكتاب بأنها متينة السبك. وتمكن المؤلف عبرها من تفنيد ادعاء الليبراليين بأن تلك الحقبة كانت «عقد الجشع». وعلى الرغم من أن المؤلف يرى بأن «ثورة ريغان» و«ثورة ثاتشر» كانتا تحملان «شيئا من الوهم» في طياتهما. وذلك بسبب ارتفاع الضرائب والإنفاق الحكومي بغض النظر عن رغبة القائدين السياسيين بالعكس من ذلك. ويصل إلى استنتاج يقول فيه:

> لم يتتالَ عقدان يختلفان عن بعضهما كهذين العقدين [سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين]... فكانت الثمانينيات هجوما مضادا عظيما: فما أن ظن العدو بأنه انتصر، حتى انفجرت عليه ترسانة أسلحته.

ويعتقد المؤلف أن «السؤال الأكثر إثارة للاهتمام حول العام 1981 أنه لم يبرز تنبؤات حول ما سيحصل في العام 1989»، على أنه لا يغفل الإشارة إلى الجمود الفكري الذي كان منتشرا في صفوف المراقبين الغربيين للاتحاد السوفييتي، ودون أن يستثني نفسه أيضا (مع ذكر الأمثلة!). كما يعتقد المؤلف أن غزو أفغانستان في العام 1979 كان بداية نهاية الاتحاد السوفييتي على نحو مشابه لقرار بريطانيا في العام 1947 بالخروج من اليونان، والذي «كان أول قطرة من الغيث». كذلك فإن المؤلف يبدي عدم تأثره بغورباتشيف، ويصفه بأنه «آخر الأغبياء النافعين». وأنه على الرغم من «التزامه الواضح» فإنه لم يكن شخصا ثوريا من النوع الذي يحب الجميع توجيه الاتهام إليه. وكذلك لا يلقي المؤلف بالا لبوريس يلتسين ويصفه بأنه «مهرج آخر من المهرجين الأشرار الذين يتقيأهم التاريخ الروسي».

صحيح أن المؤلف يتجنب شيئا من النبرة الانتصارية التي تحتويها الكتب الأخرى المؤرخة للحرب الباردة. ولكنه يذكر أن نهاية الحرب الباردة «كانت ساعة أطلسية» و«كانت

كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل© www.iraqfuture.net

مدبرة على نحو ممتاز» مما جعل حقبة ثمانينات القرن العشرين «أكثر عقود ما بعد الحرب إثارة للاهتمام». وتجد في أنحاء الكتاب لمحات وتنبؤات عن الحالة الراهنة لعالم الأطلسي، ليبرز من بين السطور سؤال حول ما إذا كان قادتنا الحاليون يتماثلون في قوتهم أو أفكارهم مع ما كان سائدا في حقبة ريغان وثاتشر وشميت.

كما نجد في الكتاب أحداثا ومواضيع جانبية، من بينها: العرض الاحتفالي لما تعرض له المؤلف من اعتقال وجيز في تشيكوسلوفاكيا في العام 1968، وما تسببت به أوروبا لنفسها من انحدار في مستوى التعليم العالي؛ وهذا مما يميز مقاربة المؤلف للحرب الباردة ويجعل الكتاب إضافة قيّمة للأدبيات التي تتناول الحرب الباردة، وعضوا ضروريا في مكتبتك الشخصية.

www.iraqfuture.net © كافة الحقوق محفوظة لموقع شبكة عراق المستقبل